MOHAMED EL MLLOUKI

محمد الملوكي

وكان أمراً مقضياً...

الحساب الرسمي للكاتب :

EL Mllouki Mohamed

بسم الله الرحمن الرحِيم

وكان أمرا مقضيا

محمد الملوكي

مجموعة قصصية

المـــــــــــؤلف: محمد الملوكي

تصميم الغلاف: محمد الملوكي

الـــرســـــــــم: محمد الملوكي

الطبعة الأولى: 2021

التنقيح: عمر الملوكي – الشرطي الخل والصديق

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإيداع القانوني: 2021MO4664

ردمك: 978-9920-550-84-0

الناشر: جامعة المبدعين المغاربة

جامعة المبدعين المغاربة: جمعية ثقافية فنية أسست بتاريخ 10 يوليوز 2010

العنوان: /دار الشباب سيدي مومن / شارع الحسين السوسي سيدي مومن الدار البيضاء.

الطبع: مطبعة وراقة بلال – فاس / المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمّد السر الأعظم.

الساري في سائر الأسرار وعلى آله وصحبه صلاةً تدوم بها

فينا يا اللّه نوامي رحمتك المرسلة، وتحسن لي بها عندك

يا اللّه عاقبة مآلي.

عزيزي القارئ: " كن كالنحل يأخذ من كل شيء أحسنه".

لقد عزمت فتوكلت على الله، وأسأل الله أن يشيع ما في هذا الكتاب من خير.

تقديم

قد يسأل سائلٌ عن مصدر المتعة والمنفعة الواردة في العمل الأدبي.

والحق يقال: إن عنايتنا بالأدب ترجع أولا إلى أهميته الإنسانية العميقة العريقة. فالكِتابُ يستمد أركانه من الحياة. وحين يقرأ قارئٌ عملا أدبيا ما، يكتشف أن هناك علاقات وطيدةً حقَّةً بين نفسه والحياة. فالأدب سجل لما رآه وسمعه الناس في الحياة، أو فكروا فيه وأحسوا به إزاء مظاهرها التي لها عندنا جميعاً أهمية مباشرة تفوق كل أهمية.

ويعبّر الأدب بذلك عن الحياة، وهذه هي الصلة الوطيدة بينهما، هي السر فيما يتضمن من متعة ومنفعة. لأن القارئ يحب أن يرى الحياة منقولة له بجزئياتها وتفاصيلها داخل مؤلف أدبي. ومن هنا يفهم أن الأدب يعيش بفضل الحياة التي تتمثل فيه.

وكما قال هدسن: " الأدب تعبير عن الحياة، وسيلته اللغة".

وقيمة الكتاب لا تقف عادةً عند قراءة مشاهدَ من الحياة فيه. بل إن القارئ الفطن يناقش نفسه وأفكاره بسبب فكرة زرعت بكتاب اطلع عليه. ولتعلم أن هناك كتُبا غيرت من منهج حياة قارئها تغييرا جذريا. وهنا يتمثل ما للأدب من نفع حين يُعمق فهمنا للحياة. بل أكثر من هذا حين يوجه حياتنا. فالأدب يستمد من الحياة ويدفع الحياة ويوجهنا فيها.

إهداء

لوالديَّ..

لكل من يثق بالله ويعلم أنه سيُحدث بعد كل عسر يسرا..

لكل من يثق بعدالة الله ويعلم أن ما وقع وما يقع وما سيقع كان أمرا مقضيا..

إهداء للإخوة والأصدقاء والأحبة.

إهداء لكل من تقع عينه على هذا السطر.

قالو عنه...

لقد استمر في - بادئ الأمر- بوصل مساعيه النبيلة، مغمغما بينه وبين نفسه مأمّلا.

كانت أفكارا في حكم المعدومة، وقد سميت - بكثير من الامتعاض- تعب ومشقة، ولكنه استطاع بشيء من المساعي الدقيقة أن يكون ذاك النموذج الفذ النادر، بين براثن الجهل والشذوذ والانحلال.

كان صديقي الملوكي تلك المنارة التي أضاءت لي من مدينة أولاد برحيل، تطوف -بلا هدف- في وقت من الأوقات.

وعلى أية حال، هذا -على الأقل- جهد المقل في ترجمة حبي لهذا الصديق الوفي.

لقد أخذ غماره دون انحراف عن الطريق السوي، متجاوزا متاعبه الخاصة، في تحد وثقة وسخرية، وإنّ عمله الأدبي هذا، لهو الخلاصة الطيبة لجدّ كاتب صادق مجدّ، ولقد استفاد وأجاد. فهنيئا لي بك صديقي الملوكي ...

الكاتب والقاص: جمال بن عبد الله الحيان

قالو عنه...

يؤكد لنا القاص مرة أخرى، أنه ينتصر للقصة ب " وكان أمرا مقضيا " مجموعة قصصية يقص علينا فيها من أنباء ما وقع.

أحب توغله المستمر في قضايا المجتمع المختلفة. كما أنه يقترب بشكل لافت للنظر من شخصياته المهمشة، وتفوح منه ومن كتاباته رائحتهم الغريبة ليس علينا بل على من يقرأ له أول قراءة.

لا تبحث بين السطور، نعم أنت، لن تجد حدثا يجلس بينها ينتظر سلامك عليه ليرد السلام، أو شخصية ثرثارة تحب الكلام.

لكن بما أنك لاتزال تقرأ هذه المقدمة التي لن تستفيد منها سأعطيك رأس الخيط الذي حاك به القاص هذا القصص "أمر مقضي". أمسكه جيدا لا تفلته ...

الكاتب: مصطفى الهاموس

" الغريب"

"ومجتمعنا قد تناوبته الأسقام، وتداولته الأوبئة حتى تعود العلل وألف الشقاء والفتور، فأصبح يبصر الأوصاب والأوجاع كصفات عادية طبيعية..."

إنه غريب...

كثيراً ما أراه متشردا هائما يطوف أرجاء الأزقة، متلففا في عباءة سوداء رثة بالية، مرسلا من خطاه الثقيلة نُدر الرهبة والخوف. غير آبه. لا وجهة له ولا مأوى، لا سبيل يوصله لرجائه، ولا رجاء يكمن في نفسه. فذاكرته طمست ومحيت وما عاد يذكر من هو. ولا يعرف أصل نفسه ولا فرعها، كل ما يعرف أنه هو؛ هو.

قابلته الذاكرة بالنكران وانجذبت للنسيان، وضمرت ذكرياته كما تضمر العضلة، وأصبح مكتوف الفكر معصوب الذاكرة جاهل نفسه. اسمه طُمس واختفى كما تختفي الأرانب في قبعة ساحر، واتخذ له الجميع اسماً؛ " إييه أنت "يقولون:

اييه انت ابتعد من هنا...

اييه أنت خد كُل...

يسأله سائل: إييه أنت ما اسمك؟

يجيب وفي جبهته رَسَمَ بحاجبه تعجبا واستغرابا :آه أنا؟

يحك رأسه بالإبهام محركا بؤبؤ عينه يمنة ويسرة، يتردد قبل النطق:

أنا لا أعرف !

تبدو على وجهه علامات الأبهة والحيرة، يردف قائلا بنبرة يرجو منها جوابا.

من أنا؟ نسيت من أكون.

يقول السائل :

-أنا أحسدك على فقدانك لذاكرتك ونسيانك لكل شيء، إن النسيان منة من الكبير المنان. غدا عقلك صفحة بيضاء كيوم ولدتك أمك، أمامك الوقت لتبدأ من جديد.

يقض مضجعه أحداث تتوالى في رأسه، يستيقظ مفزوعا على وقع غماغم مبهمة، ماسكا رأسه مغمضا عينيه. عاضا على أسنانه ويطبق فكه العلوي على السفلي بقوة بحيث تتراص أسنانه. تقترب منه حقيقته وماضيه، حتى تكون على شفا الكشف من سترها. وتذوب كما تذوب الشموع في الغيابات، كان مضطربا حزينا يتملكه التوجس. ينقصه طريق مُسْلِحِب يوصله لماهيته.

ومجتمعنا قد تناوبته الأسقام، وتداولته الأوبئة حتى تعود العلل وألف الشقاء والفتور، فأصبح يبصر الأوصاب والأوجاع كصفات عادية طبيعية. فمنذ سنين وأنا أراه يهيم هادئا ذاهلا هكذا، يبصرُ المارةُ في وجهه عمق المأساة.

كان كالح الوجه أشعث الشعر كثيف اللحية غزير الشارب متسخ المظهر، يخلل بأظافره الطويلة لحيته تارة وشعر رأسه تارة أخرى، يترقب الجميع بنظرات استقصاء وبعينين زائغتين واسعتين يزيدهما الحزن اتساعا في وجه شديد الشحوب. تراه يطيل النظر ويكأنه يبحث عن دليل ومرشد، يجزع البعض من تلك النظرات الطويلة المبهمة. ويستثقلون دمه، ولم تخل بعض السرائر من ارتياح خفي له.

تمر قبالته فتاتان جامعيتان احداهما بالغة الحسن ميادة القد، مهيبة الطلعة، تمشي بخفة كأرنب نفور. لها شعر أشقر طويل عقدته فوق رأسها الحاسر، وعينان عسليتان تطاولت أهدابهما، وفم صغير أحمر الشفتين تبسم عن أسنان غاية في الانتظام. تتأبط أوراقا، وترميه بنظرات متقطعة بين الفينة والأخرى. فلاح الارتياح في وجهها حينا والامتعاض حينا، ألقى عليها التحية محركا رأسه بانتظام وبطء. يحرك شدقه مغمغما. فانحلت عقد وجهه ولانت عضلات صدغيه، وتلاشى بريق الحيرة عن عينه، فحل محلها هدوء ملحوظ، وكأن صلة تجمعه بها في ماضيه الممحي.

همست الفتاة لرفيقتها وأسفرتا عن ضحكة مستورة، هو ما زال يقبع في مكانه محاطا بهالة من وقار، يكنس الشارع ببصره بلب شارد.

وجوه عديدة تمر قبالته، أعيته كثرة التمعن، واعياه ذهابه ورجوعه في هذه الطرقات المثقلة بالشمس. العابرون والجالسون وجوه نقش على صفحاتها امتعاض ثابت كأنها سجلات لقرف الزمن، لا شفة تفتر له عن ابتسامة صادقة. يسير مشدوها مهرولا لا يشعر بشيء قبالته، ولا يتقي ما يعترض سبيله.

وحين يمسه العياء ينزوي بجسمه النحيل منعزلا في زاوية رفقة كلب ضال، أو قط شريدٍ، يداعبه ويدندن، وتارة يلقي السمع لحشرة متطفلة وكأنه يتخاطر معها في أمر جلل.

صارت طبيعته مألوفة، ليس بمجنون ولا تصدر منه أفعال المجانين والمخبولين والمعتوهين. فقط يحتاج لمن يسبر أغواره ويكشف سره وحقيقته القديمة، كثيراً ما أتساءل في قرارة نفسي عن القصة التي خلفه، عن حياته القديمة التي كان يحشر فيها.

سمعت قصصا عديدة لاكتها الألسن وحكيت عنه، تختلف من راوٍ لآخر، يراه ثلة ممن ملكوا من العلم نصيبا أنه فاقد ذاكرة ويرى النسوة أن سفعة أصابته وأن عين البشر سامة. بينما أخبرتهم مشعوذة أنه ممسوس ومسحور ويصعب كشف الطلامس وتبطيل سحره. وبعض العامة يرونه مخبولا، وقال عنه أحدهم إنه جاسوس للداخلية. وربما لمحه بعض الناس

فظنوه رجلا ملتاثا. وكلها أقوال وظنون تتلبد في النفوس ولا يستطيع أحد أن يجزم على صدقها.

أخبرني علال القهوجي أن هذا الغريب عاقلٌ لا محالة، رغم ما يكتنفه من ريبة. كانت غيوم كثيفة من الشك تحوم حوله، وعلال يستعطفه بكؤوس شاي ساخن كل صباح، محاولا فهم حقيقته -فلا مثوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب- وفي لحظة صدق أخبره هذا الغريب أنه لا يعرف شيئا ما عدا أنه وجد نفسه في المشفى المركزي مطليا بضمادات فوق سرير تحوم حوله آلات طبية. وكانت أفكاره تتثاقل، يحاول تذكر شيء لكنه لا يقدر، هناك شيءٌ لابد أن يعرفه. لابد أن يدركه. شيء بسيط، لكنه سيغلق عنه أبواب التشرد والحيرة ويفتح له باب حياته الاصلية. هناك شيء يلمح له، يلمح تلميحا خفيفا يصعب فهمه، نور يخفق ويختفي. هو أحوج لهذا النور كحاجة الضرير لبصيص منه.

إن حياته ينقصها شيء، شيء لا يعرفه، شيء كالروح في الجسد. تتخبط صور يجهلها بسرعة أمام ناظره، لكنها لا تستقر ولو لهنيهة من الوقت. يعاني بلاء الفقدان. وذاكرته لا ترحم لهفته.

وفي صباح يعبق بسر، لوحظ اختفاء هذا الغريب، أتى غريبا وراح بغرابة، لتختفي معه الحيرة، وتعلق أجوبة الناس أفاقد ذاكرة هو أم مجنون أم مسحور أم جاسوس...

هذا الغريب نسخة طبق أصول متعددة، من المشردين وجاهلي النفوس والمجانين والتائهين. تبقى أحلامهم مجرد حقوق في الأصل، يعيشون تحت شفقة البعض، واحتقار الآخرين. يتيهون في أرض الله ويتخبطون بنوره الذي رسم كل شيء.

لهم أسرار وحقائق وحياة غير هذا التيه الذي فيه الآن. ما يسيء حقا أنهم لا يدركون حقائق ماضيهم ولا حقيقة أنفسهم، رفع القلم بعد ارتفاع العقول، وبقيت الأجساد تنهك من حين لآخر.

"الخطأ"

"لا عجب في تغير المواقف بمضي الزمن، فيتدلى من أعواد المشانق من كانوا بالأمس ملوكا، وترفع هامات رؤوس قد ذلت من قبل."

الخطأ

يُهيئ يوسف حاله، فاليوم يوم سعده، وآخر يوم له في السجن، مرت عشرون سنة من عمره وراء القضبان، وهو يعد السنوات سنة سنة، انتظارا للحظة الفرج.

عشرون سنة مصحوبة بكد الذهن، وشقاء العمر، وسهاد السنين، وعرق الجبين، والليالي الطوال. معظم الأوقات تمر في زنترة وضيق وتأمل، وهو يدرع الغرفة ببصره ويتأمل نافذتها التي تسدها القضبان، وتسفر عن وهج الشمس وخيط نور رفيع كذيل البرص.

الدخول في حوار مع أترابه في الزنزانة يقتل ما تيسر من الوقت. حين يتحدثون بنجوى الضمير، ويذكر كل منهم شؤونه الظاهرة والمستورة. ولا يكاد يخلو كلامهم من حسرة، فيتوعدون أحيانا بالهلاك، ويعهدون بالتوبة حينا آخر.

والضحكة هنا ماهي إلا بسمات صفراء وأشجان عابرة لا تهز القلب، لا تكاد ثلبت حتى تحتبس في حلق صاحبها، وتحل محلها حيرة تطفئ الحماس وتخبئه.

فقد دخل يوسف السجن في جريمة قتل.

ولا زال يذكر ما حدث لحظة بلحظة. وكأنما هناك شريط سينمائي ناطق زرع في مخه. لم يخل سبيله طوال هاته السنين.

يذكر جيدا ما حدث في ذاك اليوم المشؤوم، حين وجد نفسه على حين غرة مشردا في الشارع رفقة أمه. ليهدم حيه عن بكرة أبيه، ويدك دكا. ولم يبق منه إلا أطلالا وذكريات يسترجعها الساكنة بنحيب الأطفال وصراخ الصغار وعويل النساء. ولأن يجد الساكن نفسه مجردا من المسكن، مطرودا من المأوى فهذا شيء صعب.

الحاج بوسلهام هو المسؤول عن كل هذه البعثرة والشرود، صاحب اللسان اللادغ الآمر، أمر بهدم الحي لينشئ محله مصنعا خاصا به، اتكأ على غناه ومعارفه، استثمر قوته في العدوان، وفرض تجبره على العباد، وخول لنفسه سلطة عتا بها في الأرض.

أنسته البورجوازية العفنة أصله وفصله، ولا عجب في تغير المواقف بمضي الزمن، فيتدلى من أعواد المشانق من كانوا بالأمس ملوكا، وترفع هامات رؤوس قد ذلت من قبل. نسي كيف بدأ حياته كبائع بسيط يدفع عربة يد، ويشتري الملابس المستعملة، والأحذية البالية، والزجاجات الفارغة من الحي نفسه. تغير جلده بسرعة تفوق كل تقدير، وبدل أن يحنو عن أهل هذا الحي الصفيحي الفقير زادهم الوصب والبوى، وزاد الطين بلة، لأنه كان يكن لهم ضغينة أبان عنها في آخر المطاف.

أصابته قسوة منكرة ماكرة، قسوة الذين لهم عهد حديث باللين، وغلظة الذين أدركتهم النعمة بعد أن ذاقوا ألم الشقاء، وبلوا مرارة النقص والحاجة... فَلقد شرَّد عشرات الأسر. وارتسمت مظاهر الشقاء وأسباب الحزن على نفوس هذه العائلات البائسة. فملئت نفوسهم احتداما واستشاطة وامتعاضا. فتاق الجميع لهلاك الحاج بوسلهام. فحملوا ضعفهم ووقفوا بين يدي رب لا يغفل ولا يهمل. فرفعت الأكف وتمتموا بدعوة مخضلة بالدمع، متهدجة بالانكسار؛

يا ناصر المظلوم، ارغم أنفه وعجل حتفه وخذه من مأمنه أخذ عزيز مقتدر. وأفجعه في غفلته واسلبه نعمتك، واقصمه يا قاصم الجبابرة، وأهلكه يا مهلك القرون الخالية، واخذله يا خاذل الفئات الباغية. فمعاذ المظلوم بك، وتوكل المقهور عليك. آمين.

وأما يوسف فقد كان له نهج آخر، نظرة خاصة للأمر، يرى ضرورة وجود قاتل تبارك الساكنة يده ليقتص وينتزع تلك الروح البغيضة.

ولن ينزع الحقد من لبه حتى يقتص بيده. وأقسم على أن يحدث بعد ما حدث أمرا، فبر بيمينه بر الوفي بعهده.

وفي ليلة غسقاء شديدة القرس، كان الجو يعصف بأشجار الجوز المغروسة على جانبي الطريق. ويوسف راح يعبر الشارع بنشوة بشعة، فقبع في آخر المسير مستورا قرب منزل الحاج بوسلهام، يترصده بعينين تتألقان كجمرتين ملتهبتين يتطاير منها الشرور. أصبح ينظر بعين طالحة لا يرى سوى الدم شائعا في كل ذراته. قضى مضجعه حتى يطول السهر ويحتفظ باليقظة. كان لحظتها خفثلا مرفوع العقل.

وفور ظهور الحاج بوسلهام، كفل يوسف معتدلا، وفي يده سكين حاد باتر. وحداه خطوة خطوة حتى دنا منه ثم دعقه، وطعنه طعنة كانت كافية لتسقطه كومة من اللحم، وما لبث أن أسلمت روحه وبلغت الحلقوم وتسللت منه الحياة.

ليقف يوسف مصدوما، تثلجت أطرافه وجمدت الدماء في عروقه، وارتجف وتر في قلبه، ليجري من صدمته واندس وسط الزحام. ليتوارى عن الأنظار. وسقط أخر الأمر بقبضة الشرطة.

منذ ذاك التاريخ وهو مَزجُوٌ به في السجن.

مضت عليه عشرون سنة من الغيظ والكظم. وأصعب فترة مضت عليه؛ لحظة علمه باحتضار أمه وهو وراء القضبان، ما بيده حيلة، بترت الحلول، وانسدت أمامه المسالك، وظل ساكنا يعض على نواجده لأنه لم يحضر جنازة والدته، وبات عقله

مصلوبا. خيل له يومها وكأن حفلة الحياة انتهت وكسرت الكؤوس. وما عاد في الحياة ما يغري.

شيء في داخله ينخره ويأكل جوفه، ويسمعه النبض يدق في مخه. وخطابات لا يجف حبرها، تجري سطورها اللاهثة بنداء واحد لا يهدأ" اسمحي لي أمي".

لكنه علم أن ما أصابه كان أمرا مقضيا، فعاش يكظم في انتظار لحظة الخروج، ليزور قبرها في القفارة. وحينما جاء مدير السجن وبشره بالحرية. وفتح له السجان الباب وهو يقول :

أتمنى ألا اراك، لا أحب أن أراك بين القضبان مرة أخرى، وحسبك ما ضاع من عمرك.

وداعا.

"الحب والسر"

"كان معها صبابة من الأمل ينطق لها هاتفا في نفسها لا يكف من الصياح، وينذرها بالصبر فمن يترقب الصباح صابرا يلاقي الصباح قويا. ومن يهوى النور فالنور يهواه، وكل ما يثير دموعك الآن، في المستقبل لن يحدث الا ابتسامة لائقة لطيفة".

تقول حفصة:

لا يمكن أن أخبره بالحقيقة... محال أن يتقبلني... أخاف أن أفقده وقد ألفته... لا لا لن يتقبلني هكذا.

وحفصة هاته، هي فتاة في العشرين من عمرها، نحيلة كغزال شارد. بيضاء بلورية كأنها تتغدى من النور.

زهرة برية، ذات نظرات سهتانة، تفتر عنهم عينان واسعتان حزينتان، وشفتان حمراوين كحبتي كرز.

مرت ثلاث سنوات على رقودها مشلولة في الفراش، ولا زالت كذلك....

ولكم أن تتخيلوا نفسية فتاة في أوج أنوثتها وخصوبة أحلامها، مدقوقة في الفراش بمسمار الشلل. لا تحفل بشيء فأصبحت حياتها رتيبة مملة، وذهنها مثقل بالهموم، لم يعد كما كان متوقدا بالحيوية والنشاط... فقد خمدت ومضاته وأصبحت جمادا... فطال مرضها وأيقنت بعد محاولات بأن الذهن سيظل على جموده. فكان ألمها أخرس يصعب الكشف عنه وفهمه.

وفي ساعات الانفراد يزفر على صدرها شعور الوحدة، فتتقبضها أياد خفية خشنة، وتسكب في نفسها خمرة ممزوجة

بمرارة المرض والضعف والوحدة. فلا يرقد لها جفن في مضجع الليل وسكونه، فتسهر مترقبة ما لا تعرف، صاغية الى ما لا تسمع، محدقة فيما لا تراه، مفكرة فيما لا تفهم، شاعرة بما لا تدرك. متأوهة بين الاصغاء والتفكير والشعور... مستسلمة الى هذه البعثرة حتى يطلع الفجر، وتنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح. ويملأ النور زوايا غرفتها، وترصع الشمس بأشعتها أرض الله. إذ ذاك وبين أجفانها الذابلة تغض في نوم عميق. متبرمة من الدنيا ساخطة عليها، تترقب فراقها في جميع آناء الليل وأطراف النهار. ولو رأت الشمس لتمنت ألا ترى مغربها، ولو أنها غاربة لتمنت ألا ترى شروقها.

أما ضيقها فيهدهده الخيال. ففي الخيال تحب وتكره. تتزوج مرارا وتجري طوالا. وتصرخ جهارا، فتبني قصورا في كل الامصار، وتسافر الى كل الأقطار. فتسبح وتمرح... تم تفتح عينيها في النهاية على حياتها الدقيقة الصغيرة وهي فوق كرسي لا يمنحها من النشاط سوى مربعا مساحته ضئيلة. فتتوارى بهجة الخيال وتضمحل معالمها.

فكانت حياتها تدور في عالم وهمي، فالخيال أحلى ما تملك. هو سعادتها، حتى ذات صباح انقلبت الأمور رأسا على عقب، كان يوم جمعة. شمسه مشرقة تسللت خيوطه بهدوء عبر الغيوم الداكنة. وكانت الرياح ساكنة لا تثير أية زوابع. لحظتها

عادت حفصة من حصة طبية ترويضية. دق جرس هاتفها ورفعت السماعة... سمعت صوت غريب لا تعرفه. يتحدث بلباقة ولهجة محترمة. وهو يسأل عن أحدهم يدعى (علال).

الرقم غلط يا سيدي.

تسمر الغريب معتذرا:

آسف سيدتي لربما غيرت رقما ما خطأً.

نعم. سيدي. هناك فرق في أحد الأرقام.

ضحك الغريب وقال :

هكذا الحياة، خطأ بسيط ينقلك من موضوع لآخر.

وبدأ حينها يفاتحها أحاديث المصادفة. اسمه محمد، استرسلا في الحديث فشرق بهم وغرب. وختم كلامه مخبرا إياها كونها رقيقة خفيفة الروح، غير منفرة. احمرت خدودها شاكرة إياه في استحياء.

يسرني أن أتمكن من محادثتك بين الفينة و الأخرى.

وأنا كذلك..

منذ ذاك اليوم. كثرت المكالمات حتى ألفته وألفها، فكان ذا قلب نقي طاهر، يأنس بالعفو ويستريح إلى الحنان. ويملك نفسا مسالمة خاشعة مملوءة بالحكمة وسدادة الرأي. فتمازج ميولها بميوله. ويتحول وجدانها الى صورة مصغرة لوجوده، فكانت

علاقتهما نسخة للأحلام التي تحلمها. لقد عرف المدخل الى قلبها، والوسيلة الى سرورها وغبطتها. وأخذ بطيبوبته مكانا في قلبها وشغلها من أمره ما كان ينسيها هموم نفسها. فهلل بما يطيب خاطرها.

وملأها فجأة شعور حسن، وأضاء نور الحب جوانب روحها. نزل عليها كالوحي ملأ قلبها يقينا لا ريب فيه. ولم تشأ أن تصارحه بحبها، تخاف ألا تتساوى الأحاسيس وتصاب بخيبة أخرى. تجادلها نفسها وتخبرها أن لربما أصابتها الحرارة التي تبثها المراهقة. وأن حكايات الحب الاول مادة جيدة للذكرى وكثيرا ما لا تصلح لتكون مادة حياة وزواج.

هل أحبه؟ نعم أكثر من الحياة.

فلم يكن جدال القلب والعقل هينا، فالعقل يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين ثناياها. وتتساءل عما تضمره أود وصداقة؟ أم حب وغرام!؟

وفي مكالمة استجواب واعتراف سألها محمد من تحبين؟

فأجابت: أنت..

لم يشف جوابها غليله، وكأنه استخفاف بسؤاله، أراد الاستفسار مرة أخرى لعلها تستطرد كلاما يخفف من لهيب أشواقه، ويطمئن به قلبه لتعتدل أذواقه، إلا أن قانون اللعبة

يستوجب عليه سؤالا واحدا لا ثاني له، كما اتفقا عليه في بداية الأمر، وإن أمكنه مخالفة كل القوانين الموضوعة فإنه لا يقوى على خرق قانون لعبة بسيطة أمام سلطة صوتها وهيبة حضرتها.

فلا حول له ولا قوة.

رضي بحكمها، وأطاع أوامرها، وامتثل قواعد اللعبة، وبقي ذلك غصة في حلقه..

حان دورها وبقي محمد منتظرا سؤالها...

أخيرا.

ولحسن حظه أن سؤالها كان طبق أصل سؤاله.

فقالت :

ومن تحب أنت؟

إلاهي كيف وبم أجيب؟ وأنا لا زلت أفتش عن جواب سؤالي المتقدم.

يقول محمد: أحقا تودين سماع الإجابة

ردت بحزم وجد : أجب ولا تراوغ.

أجابها سمعا وطاعة... أنا أحب امرأة أخرى.

لحظتها بدا التغيير على ملامحها وانقلب جو المكالمة في رمشة عين، من هادئ إلى متوتر، ولعبتهما أشرفت على الانتهاء فور جوابه، وكأنه زلزال أفسد أروقتها....

أدرك محمد الأمر وقال :

"إني.."

"أحب امرأة تخبرني كل يوم بأشواقها "

"أحب امرأة تلاطفني وتواسيني وتؤنسني"

"أحب امرأة ترميني بأوصاف أجن عند سماعها"

"أحب امرأة تحزن لغيبتي وتفرح لحضرتي"

"أحب امرأة كلما أغضبها لاذت بالفرار إلى أحضاني"

"أحب امرأة جميلة اللسان تنطق الشهد والعسل"

"أحب امرأة تسقيني شبابا وتحبب إلي الحياة،

" لا تلك التي تجعلني أشيخ وأتمنى الوفاة"

"أحب امرأة مجنونة بالحب، لا راشدة عاقلة"

"أريدها أن تعاتبني وتخاصمني، وأثناءها تضمني وتعانقني."

فلتكوني تلك المرأة يا حبيبتي ثم سكت بعدها..

تبسمت حفصة وغابت عنها الكلمات، وقد كانت فيما سبق تبحث عن الحب في ظل وحدتها، فتترنم بأغاني الحب قبل أن تعرفه، ولما عرفته تحولت الألفاظ في فمها الى لهاث ضئيل، والأنغام في فؤادها الى سكينة عميقة. فاستعصت عليها العبارات ولم تسعفها الجمل.

لحظتها غمرها الحب بوشاحه، وهدأ بالها بعد أن استعلنت روحها نيات روحه، واستوضح قلبها خزائن قلبه.

ولأن اللعبة لا زالت مستمرة سألها عن حبه. فقالت بعد تردد:

كامن بين شراييني، يسري في أوردتي، يجري في عروقي مجرى الدم.

ولكن...!!!

أنا خائفة... أخاف ان يدمعني بعد أن سرتني صداقتك. أراك صديقا عزيزا وأخا كريما وحبيبا حميما حنونا لكني خائفة...

سألها:

ومم تخافين؟

ألم أستحق أن أكون بقربك بمسمى الحب لا بمسميات أخرى..

أجابت باختصار ونبرة صوتها متغيرة قائلة:

إن احببت فأنا أغار.

هنا كتم أنفاسه بعد سماع هذا، ولم يشأ أن يحول بينه وبين صوتها الرقيق شيء حتى ولو كانت أنفاسه. أراد سكون الكون كله حتى يسمع ما تقول ملهمته ويفهمه، أراد أن تلتقط آذانه حروف كلماتها دون أن تشوبها اية شائبة من ضجيج الكون.

واستطردت منكسرة فقالت:

أخاف أن أسجنك في حبي وأكبلك بقيوده، وقد ألفت أن أراك حرا طليقا تلهو وتبتسم وتمزح وتمرح، أخاف أن أفقدك بريقا من أناقتك، أخاف أن يتغير وجهك البشوش الى وجه عبوس، أخاف فقدك بسوء فهم أو فعل بريء، أخاف من جائحة يجلبها الحب وتصيب ثمرة صداقتنا، أخاف واخاف.

سرح بعدها في تلك الكلمات، فكر مليا وصدى صوتها يتردد على خلايا ذاكرته وصار غائبا فيما وراء ذلك الكلام، أطلق أنفاسه التي حبسها في صدره، وسألها قبل أن يرد على كلامها؛

لم أنت طيبة هكذا؟

تبسمت فزادتها بسمتها حسنا يفتك بالقلب فتكا.

وقالت :

ربما لأنك معي، فهذا الجمال لا يظهر إلا في حضورك، ولا أستمده إلا من صدى صوتك.

قاطعها قائلا اذن دعيني لأكون بجانبك ولأراك دوما جميلة، لم الخوف من قصص الآخرين؟، فالحب لا يؤلم إلا من لا يجيده ودعينا لنخلق نظرة أخرى حول هذا الحب فنحسن صورته بعدما أفسدها الخائنون، لنكن نحن القدوة والمعجزة لنخلق ثورة في هذا العالم ولنغير ملامحه من جديد.

حينها زالت الغصة وبدأت القصة. وأيقنت حفصة أنه نفذ إلى موضع الأسرار في قلبها. فما أغرب الدهر وما أغربنا. تغير الدهر وغيرنا. وسار إلى الأمام وسيرنا، وأذهلني ما قضاه الله وأفرحني. فبالأمس أشكو الدهر وأخشاه. فأمسيت اليوم أحبه وأهواه. وصرت أدرك مقاصده وسجاياه. ومحمد سره وخفاياه. فبكلامه يثلج أعصابي ويفتح خزائن فؤادي. ويضع بين شفتي ابتسامة دائمة تكاد تبتلع وجهي. ولا شك أن القدر سهل المراس، فحين نلاعبه يلعب، وندعبه فيضحك، ثم نقوده وراءنا فينقاد.

فكانا يسترسلان في الكبير والصغير، الدقيق والمجمل، قياما وقعودا، وعقد الود بين قلبيهما عقدا لا يحله الا ريب المنون. فجلت مكانتها عنده، ونزلت في نفسه منزلة لم ينزلها أحدٌ من قبلها. فتبادلا الصور والرسائل وتصارحا في كل شيء عدا عاهتها. فكان هذا الأمر يحز في خاطرها. ولم تشأ أن تفاتحه في الموضوع.

وكان معها صبابة من الأمل ينطق لها هاتفا في نفسها لا يكف من الصياح. وينذرها بالصبر فمن يترقب الصباح صابرا يلاقي الصباح قويا. ومن يهوى النور فالنور يهواه، وكل ما يثير دموعك الآن، في المستقبل لن يحدث إلا ابتسامة لائقة لطيفة.

تقول: لعل الله يعجل شفائي، فيلقاني محمد وأنا قائمة على أرجلي، لا يستحق أن يراني كتلة فوق كرسي...

وكان من عيوبها الجوهرية كتمانها لهذا السر. وعدم إفصاحها عن مشكلتها، فأصرت على الإبقاء بالسر في صدرها. وغدت نفسها كالغدير الراكد لا يزال صافيا رائقا حتى حال هذا السر دون ذلك، فسقط كحجر حول الغدير الراكد إلى مستنقع كدر. فغدا هذا السر مصدر بؤس وتأنيب. فالأمر بلغ مبلغ الجد. ولابد من المصير إلى الصراحة. فالأمر ما عاد مجرد مداعبات تلفونية، فنحن الآن أمام دراما إغريقية من دراما المصير. فذعر قلبها الهاني، وتبددت مسرتها، وعادت الى عهدها القديم، فلم تعد تأوي إلى فراشها حتى يمضي الليل الى أقله، ولم يبق من سواده في صفحة الكون الا بقايا أسطر يوشك أن يمتد اليها شعاع الصباح فيقبل عليها. لقد غاض ماء وجهها. وانطفأت تلك الابتسامة العذبة، من شدة تعلق تفكيرها بهذا الموضوع فتتردد في إخباره، وتزداد الحيرة.

وفي أغلب الأوقات تجلس منفردة بنفسها، في غرفة عارية باردة لا تتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار، فتدرع الغرفة وتشكو رزأً من أرزاء الحياة.

فما انفردت بنفسها حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عينها شيئا فشيئا حتى احتجب عن ناظرها كل شيء. وكان وراء هذا المنظر الضارع المؤسف نفس قريحة معذبة. تخاف أن تصارحه فتفقده وتفقد نفسها. فبدت عليها مظاهر الحزن وهَم

لا مصد لسهامه. وحيرة لا تجد من الناس مواسيا ولا معينا. فكانت تقول والدموع محجرة -في عينيها- لا تفيض ولا تغيض: ما على وجه الارض أحد أتعس مني ولا أشقى.

فبعد أن وجدت حياتها واستكنت اليها، باتت الآن مهددة بالضياع، وهو أمر لا طاقة لها به، زفرت زفرة يخال سامعها أن كبدها قد أرفضت[1] وهي تقول:

لا يمكن أن أخبره بالحقيقة... محال أن يتقبلني... أخاف أن أفقده وقد ألفته... لا لا لن يتقبلني هكذا !

[1] أرفض الشيء: تفرق وتشتت.

"الابتلاء"

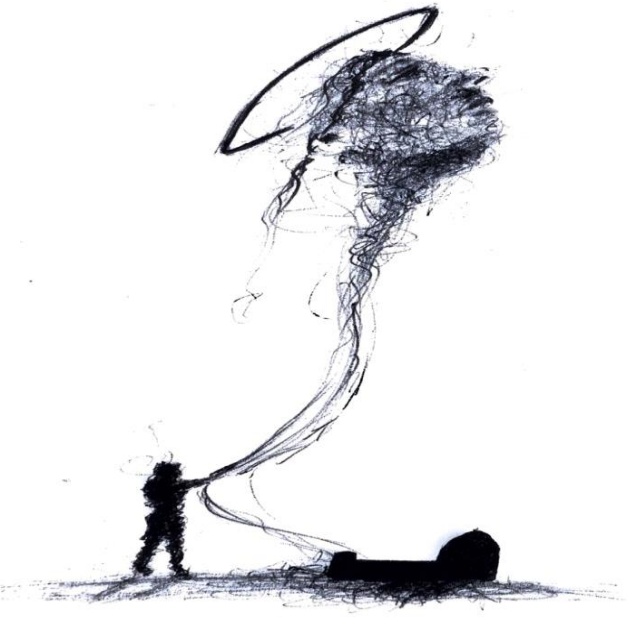

"عاش معها أزهى لحظات الحب، كانت بلسم جروحه. وكان حبهما قائما على الإخلاص والوفاء. وكان بينهما رابط وثيق أقوى من أن يفصل بشيء في هذه الدنيا غير الموت."

مارس البارد...

هطلت زخات المطر في الصباح الباكر. لكن الجو رقّ وصفا عند الضحى، وأشرقت الشمس، وكان أول عمل يقوم به الحاج فتاح زيارة قبر زوجته.

دخل المقبرة وألقى التحية على الأموات في جو تسوده السكينة وهو يجول ببصره في الأرجاء بعين حزينة فاحصة، ينتقل بنظراته وسط القبور. انتهت به الأقدام عند شاهد قبر زوجته. وفي لحظة روحانية التزم فيها الصمت لهنيهة من الوقت، طابت فيه نفسه وهدأت روحه. وبدأ بعدها يجود من القران ما تيسر، وبقلب خاشع لا يستحضر سوى عظمة الخالق ورحمته التي وسعت كل شيء، دعا لزوجته كلثومة بالرحمة، واستودعها لله حتى يلتقي بها في دار جزائه.

هذه المسكينة التي كانت قبل أيام قليلة ماضية، تشاركه الطعام والرقاد والحديث، كانت سنده المتين في بداياته، و مهدهدة الضيقات عنه، يجد أنسه وراحته وتغمره الطمأنينة والراحة والسلام وهي معه.

كان يعتنق الصفر في حساباته البنكية وأحبته بصفره، وآمنت بمشاريعه، ووثقت بخطواته. وتكتلت الجهود حتى تضخمت حساباته وحُول الصفر لملايين، وأصبح سيد المشاريع ورب المصانع. أصبح اسم الحاج فتاح يضرب به المثل في العمل والكدح وفرط الذهن والمثابرة.

لم يغير الغنى شيئا من حبه لكلثومة، بل قويت الصلة، وجعلها مستشارة حياته. لا يقدم على فعل دون موافقتها، فيجلس إليها محدثا، ويسألها مستفتيا، ويقترب منها شاكيا ما في القلب من الكروب. عاش معها أزهى لحظات الحب، كانت بلسم جروحه. وكان حبهما قائما على الإخلاص والوفاء. وكان بينهما رابط وثيق أقوى من أن يفصل بشيء في هذه الدنيا غير الموت.

في إحدى الأيام الخالية استلقى الحاج فتاح على الأريكة متوسدا فخد زوجته كلثومة، مخللة شعر رأسه بيدها.

كانت لحظتها متضايقة لا يهدأ لها بال ولا تسكنها راحة. ولا يسلم تفكيرها من تشويش. وأفكار تلاحقها مند عشر سنوات مضت. مسها الكبر، أخد منها سنين عديدة. هي في الأربعين من عمرها ولم ترزق بعد بفلذة كبد، لم تمنح منحة الأمومة بعد. وأقسمت الا يهدأ لها بال ما لم تُطرب مسامعها بكلمة " أمي". كلمة أمي هي النغمة المفضلة، هي الآية المقدسة، هي النعمة التي غبنت فيها.

لم يعد ينقصهما شيء فكل ما يرغبان فيه يحصلان عليه بإشارة من طرف البنان، وكل ما يحلمان به حققاه ويحققانه في أقل من إغماضة عين. لكن منحة الأمومة أكبر من هذا كله، أغلى من أن تكسب بالأموال، غير قابلة للبيع ولا الشراء ولا المقايضة.

تُبصر بعين رأفة اجتهادات الحاج فتاح من أجل أن يحظى معها بمولود، تعلم أنه مرهف بما فيه الكفاية، لكن فتاح إنسان عاقل، آتاه الله من الحكمة ما آتاه، وعلمه من الرضى ما قضى. وبدل أن يثقل كاهلها يتصرف بنحو جيد معها، وفي كل مرة يخبرها أنه سعيد بها...

أنا غير متضايق البتة، إنها أقدار الله ولا مفر لنا من القدر...

أعرف يا فتاح، لكنني...

لكنني ماذا؟!

تقول كلثومة بصوت تجانس بالدموع: أخاف أن أكون قد نكدت عليك عيشتك.

وبلهجة تدل على صدق الخبر يقول:

كلثومة عزيزتي.

يقولها وهو يضعه كلتا كفيه على وجنتيها الجميلتين، أنت سراجي ومؤنستي وحاشا أن تكوني قد نكدت علي عيشتي. لم هذا الكلام؟

يضمها لصدره وهي تنتحب.

اختلطت عليها الأمور وما عادت تعرف الفعل الصائب من الخاطئ تصلي وتقوم آناء الليل وتدعو الله، وتنفق مما تحب من أجل الولد لا تقربا لله.

يقض مضجعها نداء طفل صغير في حلمها، نداء رقيق لطيف ينادي " أمي... أمي" تتمنى لو أنها لا تستيقظ من هذا الحلم، لو أن بيدها حيلة تنقدها من هذا الجاثوم.

وأحيانا أخرى يشرد ذهنها ويخيل لها فتاة تلعب قبالتها تجرى هنا وهناك، تكتسي تنورة وردية اللون، تبتسم وتبسم كلثومة. ويقطع خيالها نداء فتاح:

كلثومة... كلثومة !

كلثومة غارقة في بحر لجي من الأحلام الزاهية. تستفيق من شرودها

آآه نعم يا فتاح؟

أصبح الولد محل ازعاجها من حيث لا تحتسب، فكثيرا ما تصبح الأمور التي نحب مصدر الإزعاج وبؤرة الإرهاق.

العقم يولد الأمل.

كانت كلثومة تسعى خلف كل طبيب سمعت عنه احترافية التطبيب، فلم تدع طبيبا ولا عشَّابا الا شكت اليه أمرها، فما أغنى الطبيب ولا العشاب. استعملت مختلف الأدوية والعقاقير، وعملت بالوصفات واهتدت لنصح الناس لاستعمال طب الأعشاب. وفي كل مرة تصدم بحائط الخيبة، ليتبدد تفاؤلها على إثر خيبات متعددة.

وفي كل هاته المرات تجد الحاج فتاح يلبسها لباس الصبر، ويُعْلمها أن اليأس والقنط من رحمة الله مفسدة، أيما مفسدة. وما أمسك الله علينا نعمة الأولاد الا لحكمة لا يعلمها الا هو، ولله في شؤون عباده سر وعظمة. تجملي يا عزيزتي بالقناعة.

لم تفقد كلثومة الأمل وبقيت معتصمة بحبل الله، وهي تعلم علم اليقين أن حبل الله شديد الإحكام، تعقَّلت كلمات الحاج فتاح وأدركت أن لله أسرارا وحكما في شؤون عباده. وحين أيقنت بألا سبيل لمعاندة الأقدار، وأن الله يسمع ويرى. فهو موجود في كل مكان يسمع أبسط الأمور، يلقي السمع وهو شهيد، لا تأخذه سنة ولا غفلة عن طنين أضعف المخلوقات، لا يهمل يدا رفعت نحوه ولا دمعة سقطت من أجله، ولا شهقة باحت باسمه، كل أفعاله خير، وكل تصريفه عدل، وفي بلائه حب، وقضاؤه رحمة.

أصبح ايمانها ضليعا حين كشفت الحقيقة أمام ناظرها، وأدركت أن ما يحدث معها كان أمرا مقضيا، فهدنت أفكارها، وخف كاهلها وكأن يدا رحيمة نفثت عنها الأعباء، واستبدلتها بالهناء.

هناء لم يدم طويلا، فما لبثت أن عانت من صداع و زعللة ودوخة، تشكو منها في الأيام الأخيرة. وكان يظن كل منهما أنها مجرد أعراض عادية بسبب كثرة التفكير والسهد...

فأصبحت صحتها تتوعك، وتأخذ في التدهور، كلثومة تهزل بسرعة مذهلة، كأنها كرة ثقبت.

لم يصدق الحاج فتاح أن عشيقة عمره...وزوجته وحبيبته تموت. وأن ما أصابها ورم سرطاني سكن كبدها. كل شيء تغير فجأة. غزا الورم كل خلية في الجسد، وشلت حركاتها، وتوقفت ذاكرتها، وجمد بصرها. ولم يبق لكلثومة شئ تعرفه ولا تُعرف به.

غدا جسمها طيات من الجلد خاوية، ذهبت النضارة وخبا الجمال وجف العود الريان، ويبست الأطراف. وخابت في شفائها الوصفات.

لحظتها يستطيع الحاج فتاح أن ينفق مال الدنيا من أجل أن تعود كلثومة لطبيعتها، فما نفع الأموال والمصانع و... إن غابت كلثومة.

يصبح ويمسي الحاج فتاح قابعا جنب سريرها، لا يغفل عنها لهنيهة. يأخذ يدها ليقبلها ويربث هامسا:

ستشفين، ستشفين إن شاء الله.

إنه يخاطب كلثومة التي غدت كالمحنطة، لا تتحرك ولا تحس. أصبحت عيشتها شكلا لا حقيقة. وحين كمل الأجل وأُخدت روحها عند بارئها أخذ عزيز مقتدر. ظهر الخط الأملس المستقيم، وطال صوت (طووووووووووووط) توقف القلب، وتوقف نشاط المخ، وعادت الروح لقابضها راضية مرضية وتلك الوردة الناضرة التي تملأ الكون جمالا وبهاء سقطت آخر ورقة من ورقاتها.

وحين لمح الحاج فتاح كل هذا، خفق قلبه خفقة الخوف وأحس بحزن لا يعرف مأتاه. فقام مفزوعا مهلوعا وكأن صاعقة أصابته وهو يسألها:

هل مت يا كلثومة؟

يرددها مرارا فلا ترد عليه الا دموع جامدة ذابت في وجنتيه.

هل مت يا كلثومة؟

يبدو سؤاله للحاضرين في غرفة الإنعاش غريبا. لكن لا غرابة فيه،

فلحظة موتها رفع عنه عقله.

إن الحب لا يتحمل هذه المناظر.

"حكمة الحياة السياسية"

"لا يبالي كثيرا بهاته الطقوس فجلالة المال بيده، والضمائر رخيصة في متناول اليد، في متناول المال، ومن لم يقبل بالقليل يقبل بالكثير، ومن لم يقبل المال بالنهار يقبله بالليل."

جعفر، رجل سياسة...

كانت السياسة شغله الشاغل وهمه الوحيد، وكان ذكاؤه يزداد حدة في هاته الأمور، يملك مفاتيح السياسة، ويعرف ثغراتها وفك طلاسمها.

فقد كان فقيها سياسيا داريا بكل الخبايا، ولا تكاد تفاتحه في موضوع سياسي حتى تجد نفسك مندهشا مما قد تسمعه منه، أما خطابه في غير السياسة فيضني، وينكره العقل انكارا ويرفضه رفضا لصعوبة الفهم عنه.

وهو الآن رئيس حزب... دعونا من الأسماء فهي مجرد بطاقات تصرف على الجميع دون استثناء، ولكي يصل إلى مقام الرئاسة تخطى المراحل، وعَلِم بالقوانين ليخترقها، مستندا على الجهد والرؤية المتصلة والتفكير الطويل.

وأنت تنظر إلى وجه جعفر، ترى وجها جهما ضخما تعتليه جبهة بارزة قد انبسط فوقها رأس مفرطح عريض لا شعرة فيه. وعيناه لا تكاد تميز انفتاحهما من انغلاقهما، إذ لا تصوران يقظة ولا ذكاء ولا نشاطا.

وهو ينظر لشيء أمامه أو إنسان بين يديه يرفع بثقل جفنين منكسرين في شيء من الجهد البطيء أسفلهما أنف طئيل يكاد يختفي فيما يكتنفه من لحم خديه فيسمع صوته ثقيلا مختنقا. وكانت بسمة شفاهه تدل على غير ما هي عليه. تدل على الغفلة، وأما بنيته فكانت ضخمة تفتر عن بطن منتفخ. وقد استطاع أن يوفق بين شخصين اثنين متناقضين في جسد واحد، فبحسب الأوضاع والمصالح تتغير جلدته.

وهو يتربص بمصالحه تراه سمح الأخلاق صافي الذوق مترف العقل سهل المراس مهذب الطبع، مثقف الذوق لين العريكة. وهو على عكس هذه الخصال مالم يرج نفعا ولم يصب مبتغاً. فيضفي على نفسه ما شاء الله من شراسة الطبع، وقسوة المراس، وغلظة الذوق، وجفوة الأخلاق، وخشونة الحديث، وانحراف المزاج، وسوء العشرة...

فَوفَّقَ في ضم هذا التناقض في جسد واحد، فالأمر كله للمصالح.

وقد استغل منصبه لتسيير أموره الخاصة على حساب من نصبوه ليسوس أمرهم. فكان يدبر أمور حياته الخاصة بتدبير المستبصرين، وبعقل لا يعبأ بالسوء، ولا يرتد عن المعاضل، ولا يفرقه الذكاء النافذ والذهن المتوقد. وستَعترف كما يعترف غيرك

بأن له حظا عظيما من الفطنة والذكاء. فكان أرق الناس في خصوصياته.

فيما يتعلق بالصالح العام، تراه يقيم أمره على الرياء والتصنع. فيضرب خبط عشواء، ينهب الأموال ويزور الحسابات ويمد الأموال فوق المكتب وأسفله، ويسرق أكثر مما يخدم. فاندفع به حب الإثم إلى غير حد. وتلك أمور يزينها الشيطان له في ثياب فاخرة من الزخف، تأخذ عقله فلا يرى سوى رفع وثيرة مشاريعه الخاصة. فازدادت ثروته وقوته، وأصبح يملك مخالب لا ترضى باليسر.

أصابته حالة ذاتية لفته وغلفته، وطمست سمعه وبصره وبصيرته، فلا يرى الموت ولا يسمع منادي التوبة. فأصبح يتصرف على هواه، وكأنه خالد مخلد لن يموت. وبهدوء عجيب وثقة مغشوشة. يدير مشاريع يأخذ أوفر نصيب من حصتها.

ونحن على مقربة من موسم الانتخابات، موسم تغير قشرة السياسيين، حيث يحلو لسانهم وتلين قلوبهم. فتلهث ألسنتهم بالوعود والتزيين.

جعفر لا يبالي كثيرا بهاته الطقوس فجلالة المال بيده، والضمائر الرخيصة في متناول اليد، في متناول المال، ومن لم يقبل بالقليل يقبل بالكثير، ومن لم يقبل المال بالنهار يقبله

بالليل. وكل سياسي ينافسه أو يبث الخوف في حزبه يسقطه بالحيلة أو المكر أو المال. وكان جل ما حوله قابل للشراء والمساومة.

وكان جعفر يقيم رأس كل شهر -في منزله- حفلة على شرف نوابه ومستشاريه وأعضاء حزبه. ليتداولوا سيرورة الحزب وتطلعاته وأهم مشاريعه. فيأكلون مريئا ويشربون هنيئا، حتى إذا كاد الليل يبلغ ثلثيه يعودون إلى مآويهم وقد خلصت نفوسهم حظا من اللهو، وصفت ضمائرهم للعبث.

وسأصور لكم ما حدث في يوم قائظ من آخر أيام أبريل.

استضاف فيها الرئيس حاشيته وكان اللقاء سريا كالعادة. مخافة أن تشوه السُمع، ويسقط البعض من القمم، وتُفقد المناصب. فالجو هنا معربد تهيج فيه أشواق المحرومين ويثار فيه استهجان المتقين وينزع العفاف. وتجر النفوس على سجيتها في غير تحفظ ولا احتياط. فتطلق الألسنة، من غير تصنع ولا تكلف.

وبينما الجميع منغمس في الفكاهة الباردة والعبث الفاتر والمزاح السخيف. كان هناك في زاوية الصالة الفسيحة مستشار أحدب قصير القامة، مكتنز اللحم. مكحول العينين، مزجج

الحاجبين، نيف على الأربعين، انفرد بنفسه وهو يضع خده على يده مسندا مرفقه إلى مسند المقعد.

يميل إلى الصمت والانصات أكثر ما يميل إلى الكلام والفضفضة. وقد كان يرمق ذاك الجمع بعينين تعكسان نظرة تحد وعدوان. ويغمغم بين آن وآن. وقد كان من الرجال الذين تغلبهم الصراحة على نفوسهم في حضرة الكؤوس. وحين اندلقت الكؤوس لجوفه واحدا تلو الآخر أحكمته الثمالة. وجعل يبكي بشدة. وانجذب الجمع نحوه في استغراب.

ومن شدة القلق والحزن، دب الضعف في أعصابه. ولُمِح في جفنه المسبل انكسار شديد. واستمد من انكساره شجاعة وهو يردد بلسانه ألفاظ التذمر والندم ونوادرها...

انا لمن الهالكين، معاذ الله أن نكون من المصلحين.

وأبدى ندما لو وزع على مئات العصاة لوسعهم. واستطرد قائلا:

تستحقون غضب الله لاستهتاركم بأموال العوام. وتركهم يلتقطون رزقهم بعناء. ضعفاء يبكون. دموعهم تنسكب في جوف الحياة مثلما يتساقط الندى من أجفان الليل في كبِدِ الصباح. ونحن هنا تنهرق السخرية من أفواهنا مثلما يسيل سم الأفعى على جرح الملسوع.

ونظر له الجمع نظرة الآمن المطمئن حين يفاجئه من الأمر ما لم يكن ينتظر. فاندهش الجميع من هول ما سمعوا. وأما الرئيس جعفر فأخذ ما أخذ الجمع من الدهش، وغشيه ما غشيهم من الوجوم، وأصابه ما أصابهم من الذهول.

والقى كل واحد منهم لصاحبه نظرة واجمة. كانت النظرة التي ألقاها كل واحد للآخر، تحمل تساؤلا "ماذا يقول هذا الثمل؟".

وبعد كل هذه النظرات كان لابد من كلمة تنفرج عنها الشفاه، أو ضحكة تنغفر لها الأفواه. أما الضحكة فقد سمعت ضحكات مستورة. رئيت بسمات مخفية. وأما الكلمة فكان الجميع ينتظر الرئيس جعفر فهو أولى بالرد. لكنه تأبه عن ذلك فكان الرد من أحد نوابه:

أأحييت ضميرك؟ وأنت أكثرنا نهبا وأسوءنا سمعة وأقلنا نية؟!

قهقه الجمع ومضوا يتابعون نقاشهم. توارت الأنظار عنه، وشرق بهم الحديث وغرب. وبقي المستشار مغمورا بندمه وحزنه يغمغم وينتحب بمفرده. يمسح دمعة ويدفع كأسا.

وقد يرى المستبصر الذي أتاه الله من كرامات البصيرة أن هذا الاجتماع خلاصة مركزة لحكمة الحياة السياسية.

ولست أكره أن أقص عليك ما يحدث في كل لقاء. لكنني أوقن أن السيناريوهات تتكرر. فنفس الحلَقة تعاد؛ - تبدأ بلقاء ينتهي في آخر الليل بحيث يعود الجمع لمآويهم، ويكأنهم جروا أشواطا قطعت الانفاس، أو خاضوا معارك أعيت الأطراف.

والحل لا يكمن في رؤية الحلَقة وهي تعاد، بل في بترها، والاتيان بحلقة جديدة، أقل أو أكثر منها سوء، فعلى أي ستبتر هي الأخرى في آخر المطاف. فقد غدا هذا المجال مجالا للاسترزاق والاغتنام ضاربين عرض الحائط المصلحة العامة والصالح العام، وأصبح ممارسها طالحا بالفطرة.

والمشكل ليس في السياسة في حد ذاتها وانما في النخب السياسية التي لا تبذل اي عطاء ولا أي تضحية بل تجد في بعض المجالس والاحزاب أعضاء لا يفقهون في السياسة وغير مؤهلين لممارسة هذا العمل النبيل. فالسياسة في هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون، لا منحة يمنحها الراضون المتقون.

وربما حان الوقت لتحيين هذه النخب التي تتعامل مع الوطن والشعب بمنطق الغنيمة لا بمنطق الشهيد.

"ولى الزمن"

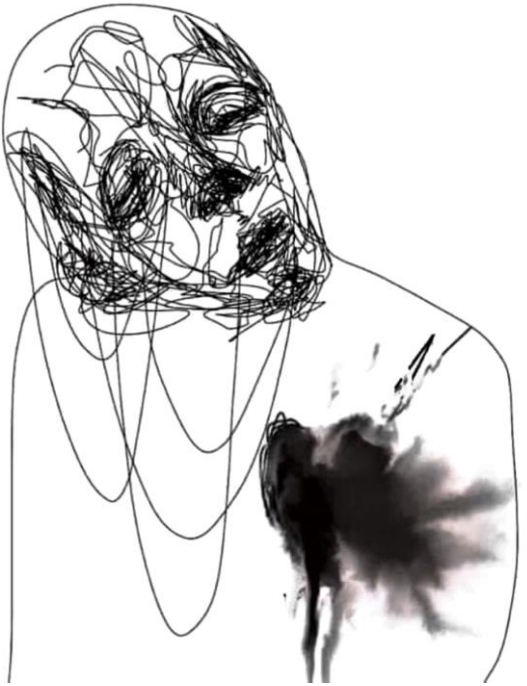

"أنا رثْية أيامك أيها الزمن فلم تخاصمني وأنت القوي؟ لم تذلني وأنا وحيد في محنتي منفرد بالغربة في وطني. بالأمس كنت نديمي وغدوت اليوم لائمي. أين زمن المحبة والآماني؟"

ها هو ذا راجع الى بلدته بعد عُمرٍ مديد، مر عهد طويل على آخر مرة كان فيها هنا. قرابة نصف قرن وهو مغترب. هجر وطنه. واستكن الى الغرب. ورغم ذلك فقد كان متفانيا في اشتياقه لبلده. وعلم أن غربته مؤقتة، فحرضه حنينه القاسي وأشواقه الملتهبة للعودة الى موطنه.

يخطر له في باله أحيانا أن الراحة الحقة لا تكمن إلا في بلدته ومرابع شبابه. ولم يشأ أن يقضي نحبه على غرار ما يفعله المغتربون، إذ يرنون للعودة الى مواطنهم، فيظل التأجيل قائما حتى تطول بهم الغربة وتنقضي السنون وترفع الأرواح الى بارئها. وهو على عتبة الكهولة تاق حنينه للماضي فقرر الكرز الى محتده. لينعم بما تبقى من عمره. فتعلق بأهداب الحياة وانشرح صدره وتحفز، وتاق قلبه لزيارة كل الأركان.

توقفت به سيارة الأجرة في الشارع الرئيسي. نزل وقد امتلكته السكينة وأصغى صغارا وكأن في بلدته سر يستفسر القلب ويستنطق الضمير.

كانت شمس ذاك اليوم تريق أشعة حامية من سماء باهتة. حمل حقيبته متكأ على عكازه، وتحرك بنشاط لا يوازي قياس

سنه. فجعل ينظر الى المكان في مودة صافية، وفي نظراته تتجلى أشواق للذكريات الماضية. فَلاَحَ ببصره في الأرجاء، وتراءى له تكوين جديد في العمران. وقد تغير كل شيء.

تغير كل شيء بقوة تفوق الخيال. الطريق من هنا يكشف عن بلدة أخرى. أين هي بلدته التي عاش فيها مند نيف نصف قرن؟ عجت بالسكان وازدحمت فزحف بها العمران وعبس بها الزمان. ألقى نظرة الى ماضيه فارتدت اليه البلدة بتقرير موجز حيث كانت البلدة تهب بالحياة من مراقدها، فترى الغيوم تسير فوق الأطلال والأودية، حتى إذا ما لاقت نسمات لطيفة اِسَّاقطت باكية نحو الحقول. فتسير الجداول راقصة بين الصخور. وحين يأتي فصل الربيع وينشر ثوبا طواه ليل الشتاء. تنبثق الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر. فتتعانق الأغصان وتتمايل الأزهار في أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها.

وكان صاحبنا زمانها فتى فتياً يافعا، متين البنية، متدفق الحيوية، يطوف بأرجاء البلدة في رشاقة النحلة فيتنعم باستنشاق عطر النسيمات ويتنغم حفيف أوراق الغصون. ويهنأ بسماع مسامرة غدير الوادي وتأوه الرياح. فيرعى السائمة في الروابي الخضراء. ويقتسم مع أترابه ما تجود به الحقول مع ألوان النبات من بارض وجميم وتين وأعناب. فيفترش التراب

ويتوسد الأعشاب، بجانب واد أفيح بأصناف الأشجار، إذ يرقب العصافير وهي تنشط بين ما طل من نجم وأعشاشها. فيصغي إلى أسرار الحديث بين حصباتها ومائها، وحركة النواعير في صبحها ومسائها. حتى إذا طلع القمر من وراء الأفق وسلب عليها نورا طفيفا إذ ذاك تغمض الأزهار عيونها، وتسود السكينة ويظفر الهدوء بأعنة الكائنات.

كم أنس بهذه البلدة سنوات شتى واستلهاه هدوءها.

تلاشت الذكريات كحلم، فما عاد هناك أثر للهدوء الشامل الذي سكن أعالي الربى والأزقة والبيوت العتيقة. سأل نفسه عن أي أمل تجود به بلدته وقد فقد كل جميل مذاقه الحلو. فلا علامة تدل على أن هذا الموطن موطنه. السنون عجفت، والجداول وقفت عن مسيرها، والعيون نشفت من مائها، وجفت الطبيعة وبُنِي في المراعي معامل ومصانع توافد اليها أشخاص من كل فج عميق. فماجت المدينة بالأيادي العاملة والباحثة عن العمل. واصطف الشارع بالدكاكين، وفوق الدكاكين شيدت طوابق. والطريق ماج بالناس وجنت الدنيا بالحركة. وبانت له البلدة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل.

سار صاحبنا سير الذاهل المشدوه ومشى الهم متبعا خطواته. وهو لا يعرف لحاله ملجأ ولا مستكنا. جعل يختلس

النظر حابسا دمعه، شادا على ارادته، والحزن يحوم فوق رأسه مثلما تحوم الصقور على جثة. فاكتساه شعور الغربة وهو لا يعرف أحدا هنا وكأنه نعجة بين الكواسر. وكأن الجيل الماضي لم يخلق جيلا جديدا متمسكا بأصالة البلدة.

كيف تبقى بلدته على حالها وهو نفسه أخذت منه الأيام ما قضاه الله، فجف عوده وتغضن وجهه وأدركته الشيخوخة.

ظل يقلب بعينه عله يجد همزة وصل بين الجيلين... فارتد له القلق كما ترتد الموجة المنبسطة الى الزبد. فقطب وجهه وعبس. وتمنى لو أن الزمن يختل فيعفيه من هذا القرف. فما يرمقه الآن في بلدته ما هو الا جوٌ يتربص ليكدر صفوه ويقوض بنيانه. وكأن الزمن أتى أمرا نداً وفعلا نكراً.

أراد صاحبنا الكلام فنابت عيناه -الطافحتان بالدمع- عن لسانه وأصدر كلاما مع تنهيدات عميقة من فم مصدور:

أنا رثْية أيامك أيها الزمن فلم تخاصمني وأنت القوي؟ لم تذلني وأنا وحيد في محنتي منفرد بالغربة في وطني. بالأمس كنت نديمي وغدوت اليوم لائمي. أين زمن المحبة والأماني؟ زمن مجد الطبيعة زمن وداعة الأطفال وظرافة الشباب وقوة الكهل وحكمة الشيوخ...

لقد انطفأ النور وزالت المحبة واضمحلت الأماني.

هكذا هي الحياة؟ لقد اختفى ماضي البلدة بأهله وآثاره، وحاضرها يهرول لاحقا الماضي.

وفي المساء زحفت سحابة ثقيلة متدنية غامقة السمرة. حجبت نور الشمس وأطفأت ضياء النهار، وتسربت الى أركان نفسه غشاوة من اليأس والكآبة. فهدَّه العياء وآوى الى فندق ليقضي ليلته الليلاء هناك.

مكث لحظات في فراشه يتطلع السقف في حيرة وحزن، ظل محملقا في ظلمة حالكة من الهموم وخلايا صلعته تحترق بالأفكار المحمومة. وهيهات هيهات أن يدري أحد أفكار الظلام... تعب الظلام. هيهات هيهات أن يُعولَ على مذاق العسل فتَتَذوق الحنظل. ليلتها إتخد من الليل أنيسا ومن ظلمته نديما.

وبعد تردد متصل واحجام طويل قرر الإئتياب والعودة الى الغرب. قرارا لا فيئة فيه. وكان كلما أقبل الليل زادت حسرته فأعرض عن التفكير وانصرف عن الهموم محاولا الغوص في نوم عميق. إذ لابد من السبات بعد السهاد، ولا بد من الراحة بعد التعب.

استيقظ صاحبنا مع ارتفاع الضحى، وخرج من الفندق مطأطأ الرأس، حاملا وِقر مصيبته. فلم يعر اهتماما للجو الرائق ولا للشمس الفاترة ولا للنسيم الرقراق. فرفض التصديق

والاقتناع على انه سيهجر موطنه بهذه الزّمعة. وقد قصد المطار حاملا معه قلبا ملؤه أسف حقيقي. قلب يكابد ارهاصات الحزن والخيبة، خيبةٌ ذهبت به الى أبعد مذاهبها. إذ يرى ألا أحد أعظم لوعة منه. بالأمس كان غنيا بسعادته واليوم أصبح فقيرا بماله.

من الملام؟

لا يعرف لمن يوجه لومته! أ للبلدة التي تغيرت وما عادت تطفي على روحه مسحة ارتياح؟! أم للزمن الذي غيره فكهّله وشيّخه؟! أم للغرب الذي أفنى عمره وأفسد حياته الروحية، ودفعه للتأصل هناك. فتبع الغرب على سبل نارية فلذغه لهيبها. لم يدر أين يضع ملامته. فلام قلبه وشكا نفسه لنفسه.

وتبادر في ذهنه أن وطنيته ضعفت ولعله أبعد الناس وطنية وأبرأهم منها. وأدناهم الى الغرب تغربا. وآية ذلك ما حدث معه إذ ضاق بالحياة أول الأمر ضيقا كأنما يصعد في السماء. وانتهى به الأمر بالسؤم ويأس مظلم. وقد همّ أن يكذب حدسه ويهمل حسه لكنه لم يرض نفسه.

وقد يرى المستبصر الذي أمعن النظر في حال صاحبنا، أن هذا الأخير لم يعد من أجل البحث عن بلدته. وإنما عاد يبحث عن الفتى الفتي اليافع المتين الذي كان يطوف بأرجاء البلدة في

رشاقة النحلة. من هنا علم أن السنون الخالية ماهي الا لحظة من حياة أزلية أبدية، وما كل شيء فيها يبقى كما كان وعلى ما كان.

"أمر مقضي"

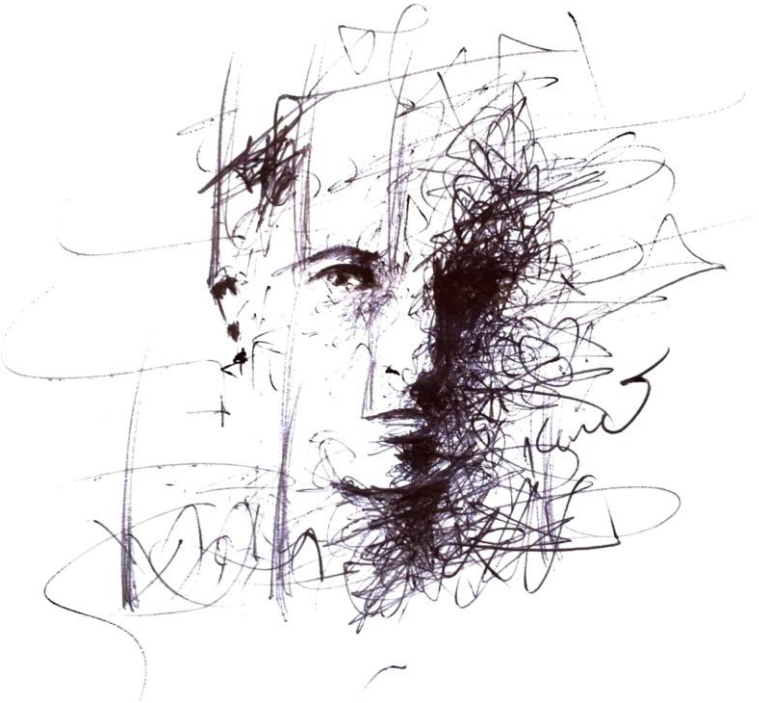

"ينظر الى الرحمة على أنها خور في الطبيعة. وينظر للحياة على أنها جهاد لا ينال خيرها الا بشرها.. لا ينال خيرها الا بالكد في الاستغلال والسطو. فجعله الطمع يدوس على أسمى القيم. وجعله الجشع مغمض العين عن كل إثم، راضيا عن كل خطيئة."

خرج إبراهيم من منزله وقد سُلَّ سيف الفجر من غمد الظلام، وانتزع ثوب الغلس من الليل. وفلق الله الاصباح وانجلى نور الصباح. خرج كاشف البال وهو يحمل شجنه وفتور حيلته وهزال حالته، وقد غشيه من الغم ما غشيه.

وقد كان هزال إبراهيم وبساطته باديان عليه، فكان الناظر إليه يسأل نفسه لأول وهلة أيرى انسانا أم هيكلا، لضعف بنيته وضآلة جسمه. ولا تكاد تظهر منه الا تقاطيع وجهه الضئيلة الغائرة، وعيناه الصغيرتان اللتان لا تنفتح عنهما الجفون الا في بطء بطيء وثقل ثقيل. ولا تكاد العين تفرسه إلا رأت الوقار يخيم عليه، والحزن حائما حوله. هو رب أسرة ضيقة الحال، يجد الجهد في كسب قوته فضلا عما تقف عليه مرافق الحياة.

وفي طريقه توجه المشفى، وقصده رؤية الدكتور عدنان، ليحدثه عن حالة ابنته، فقد عسرت حالتها، وتوعكت صحتها. وكله ابتهال لعل الله يبارك يد الدكتور عدنان، ليجد ترياقا لمرضها. وبلسما يشفيها من دائها، بعد أن خابت في علاجها كل الوصفات.

وفي أحد عنابر المشفى وقف ابراهيم رفقة الدكتور عدنان، وهما يسترسلان في أمر الفتاة. هذا الأمر الجلل الذي أسر فؤاد ابراهيم وضعضع فكره لأنه أب. والأبوة مجبولة بفطرتها على الحنان والتضحية ولو على حساب أغلى الأثمان.

وقد كان ابراهيم متوكلا غير قانط من رحمة الله، وما خاب من على الله اتكل. فكان راضيا عن حياته وأثقالها، مطمئنا الى عيشه. وهو يعلم أنه لا بُد من مقارعة الدهر، فلا يسد الله مسلكا من مسالك الحياة، إلا فتح مسالك أسنى وأجزل وأليق.

وربما الدكتور عدنان هو أحد تلك المسالك...

أخبره الدكتور عدنان بثمن إجراء العملية. وقد كان الثمن غاليا جدا، فاستقبله إبراهيم بأنفاس مرتجفة ونبضات مضطربة ونظرات زائغة:

ولكن يا سيدي الدكتور هذا الثمن غالٍ. ولا طاقة لي بما قلت.

ليرد عليه الدكتور بلهجة فضة:

هذه هي تكاليف العملية.

هذا الثمن أكبر مني بكثير ليردف:

أنا مستعد لبيع مسكني لأوفر المال. لكنني أملك خربة لا تدر علي حتى بثمن ليلة في مشفاكم... هل هناك حل آخر يا سيدي؟

وقد كان الدكتور ينتظر هذا السؤال بأحر من الجمر، وفور سماعه له بش وجهه وتنفس الصعداء، فقد أوقعه في الكمين ونال هو مبغاه ومراده.

أملك لك حلا واحداً. وربما إن سمعته سيبدو لك الأمر حلما أو ضربا من الهلوسة.

وقف إبراهيم واجماً ينتظر سماع هذا الحل بصبابة، فتكلم الدكتور في صراحة بديئة:

بع كليتك.

فرد عليه بنزق:

ماذا! أبيع كليتي؟

نعم... وسأكون المشتري، وبالمقابل سأتكلف لك بكل مستلزمات العملية وستشفى ابنتك.

أطبقت في أحشاء ابراهيم لحظة ثلجية من الذهول والضعف، وجالت صورة ابنته في خاطره، وظل ممعنا في الاطراق والتفكير. فمزق هذا الحل قلبه تمزيقا وأجرى الدموع في خده غزاراً.

يقول الدكتور: فكر وتدبر ما شئت فلست أُكرهك على ذلك. لكن الدموع لن تغير من المعقول شيئا. فالحقيقة واضحة رأي العين. وبقاؤك مكتوف اليدين حزينا لن يحول الخطأ الى صواب. ولن تشفى ابنتك من مرضها إن بقيت بهذه الحال.

ووقف الأب البسيط بين أمرين أحلاهما مر، وأيسرهما نكر.. ليقول:

الأمر صعب يا سيدي.

صدقني يا ابراهيم أولا تصدقني لن يغير هذا من الحق شيئا. فالحل معي وهو بين يديك الآن. وفي قرارة نفسك ستجد أن ما أقوله معقول لا محالة.

وما كان لإبراهيم إلا أن يقف واجما متأملا. فإذا به يسمع صوتا أشبه بالوحي ينطق من سيرورته بنبرة أب حنون، ويخبره أن حل الدكتور أدنى الى الحق، أدنى الى الصواب. فكان قلبه متوتبا، وذهنه متوقدا، وعقله لاينأى عن التفكير في ابنته.

فوافق ابراهيم على بيع كليته. وكان لابد مما ليس منه بد. وشم الدكتور من رائحة كلماته القليلة، كآبة اليأس والهزيمة. وأطل من عينيه ضعف واهن قاتل. وانحرفت زاويتا فمه الى الأسفل كمن على مقربة البكاء.

الا أنه لحظتها أحس كأنه خفف من بعض أثقاله. وكساه حزن باسم إن صح أن يبتسم الحزن. فَهَمَّ يحدث الدكتور بنبرة شكر، ويثني عليه في اطراء وامتداح وتقريط.

وبعد أيام قليلة معدودة انتزعت الكلية من أحشاء إبراهيم ووفر بذلك أعباء العملية التي أعادت الألوان لحياة ابنته. وبقدرة قادر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. عاشت الفتاة، ورطب العود الريان بعد جفافه. تحسنت صحتها واكتست حلة النعمة الزاهية.

ومن هنا قد نرى ان في الحياة أشياء غريبة تبدو غاية في النشاز والأبهة والتعجب. وإلا فكيف يستطيع ابراهيم أن يفسر أفَل حياته الى أصلها. إن لم يقل أحسن مما كانت عليه. فقد استطاع أن يتأقلم مع العيش بكلية واحدة.

فعادت الفرحة ترقص في القلوب، والنشوة تشعل في النفوس، وتحول الضجر الى سعادة. والضعف الى أنس ودعة. وما غمر قلبه من سعادة وراحة جعله يغفر للماضي إساءته وهو يعلم أن ما حدث كان أمرا مقضيا قضاه الله وحتمه وقدره وقرره وكان محسوبا بدقة ليناسبه.

ولله في قدره حكمة بالغة لا يُعرف كنهها ولا تدرك أسرارها. وسبحان الله الذي لا يعلو على برهانه برهان.

والى حد سردي لهاته الأحداث لا زال يظن هذا الرجل البسيط -ابراهيم- أن الدكتور طيب النية. وأن كل ما فعل معه واجب قام به حبا في الخير والمساعدة. هو لا يعلم أن الدكتور ماكر شديد المكر. عابث غالى في العبث. وأنه استغل ضعف ابراهيم وقلة حيلته، ورفع من سعر العملية وتكلفة الأدوية عمدا، من أجل بتر حبل الأمل الذي تمسك به هذا البسيط. وألا يبقى له سوى حل واحد لا مناص منه. وهو بيع كليته. كي يبتاعها منه بثمن بخس، ويعيد بيعها بأغلى الأثمان أضعافا مضاعفة.

فلم يكتف الدكتور عدنان بمهمة التطبيب وإنما زاد على ذلك التجارة في الأعضاء والاستثمار في حيوات الناس. وانتهاز كل فرصة تدر عليه أموالا طائلة.

كان يريد جمع الثروة بأيسر وأضمن سبيل. ولم يكن يهمه أن تكون الوسيلة مقبولة أو مرفوضة. فكان ينظر الى الرحمة على أنها خور في الطبيعة. وينظر للحياة على أنها جهاد لا ينال خيرها الا بشرها... لا ينال خيرها الا بالكد في الاستغلال والسطو. فجعله الطمع يدوس على أسمى القيم. وجعله الجشع مغمض العين عن كل إثم، راضيا عن كل خطيئة.

فقد كان جافي الطبع قاسي القلب بليد المزاج غليظ الكبد. وكانت هذه حيلته في الإطاحة بالبسطاء والفقراء. إذ لا يجدون بداً أو سبيلا يسلكونه غير بيع عضو من أجسادهم.

بل وحتى الأموات لم يسلموا من قلبه القاسي وطبعه الجافي فيعمد الى نزع الأعضاء من الأموات وبيعها بأبهظ الأثمان، وغد لا أخلاق له.

وقد عهدنا أزلا أن الله يعجل الانتقام حينا، ويملي للقساة الجفاة الظالمين أحيانا، فيمهلهم لعلهم يستغفرون عما فعلوا. ولقد أمهل الله الدكتور عدنان حينا من الدهر لعله ينوب اليه ويتوب من خبيئة قلبه، ومن دفينة ذاته، ويخلع عنه قشرة السوء ويستغفره عما اقترف من آثام، فطال التأجيل دون توبة. فتمادى الدكتور في غيه. ومهما طال التأجيل فلا بد من التعجيل. وهو الأمر الذي حدث ذات صباح يعبق بسر. حين خرج الدكتور من أجل صفقة ليبيع فيها أعضاء نهبها من الضعفاء والأموات. وحين ارتفع الضحى سعى بصفقته خفيفا رشيقا. يستمتع بجو راق كانت الشمس فيه فاترة تندلق بصخب. وكان النسيم باردا رقراقا. ليستقل سيارته الفارهة، وانحنى على مقودها في توجس وداس بيمناه على دواسة السرعة، وسار بسرعة كالبرق يشق الطريق، كي لا يتأخر عن موعد الصفقة. وكان يبسم فاه كلما خمم كمية الأموال التي سيجنيها في صفقته هاته. وبينما السرعة تزداد إذ بعجلة السيارة تُفش، لتفقد السيارة توازنها.

ودارت حول نفسها دورات لتتدحرج مقلوبة، واستقرت في اخر المطاف حُطاما. وتشتت جثة الدكتور عدنان إلى أشلاء

متلاشية. رجل هنا، ويد هناك وأحشاء البطن هنالك... فكانت خاتمته على هذا النحو الذميم.

أما إبراهيم فقد استقبل نبأ وفاة عدنان بقلب طروب وحزن فاتر...

فدعا له من خالص فؤاده بالرحمة. فلا زال ينظر اليه كونه العبد الذي سخره الله له أيام الحزن القاتم والشقاء الملح والعذاب الأليم..

"ومضة فطرة"

خلف الخالق؟" فيكمن التناقض في سؤالهم إذ يعترفون بالخالق ويسترسلون في خَلقِ الخالق!! وما يثير الغرابة والعجب والشده أنهم يشكون في الحق ويطلبون دليلا من الباطل."

أي بني عبد الله، وأنت مقبل على السفر إلى أمريكا لإتمام دراستك، لابد من مجالستك وتوصيتك. فاجلس قربي وأنصت، وافتح أبواب بصيرتك، وأيقض ذهنك. واستسغ ما سأملي عليك جرعة جرعة، رشفة رشفة.

ولتعلم بني أن هذا من باب النصح واجبٌ علي. ومن باب الأبوة حق. فأنا والدك، وليس من الحكمة أن أقف أمام تحقيق حلمك وإتمام دراستك. فإني أرجو أن تكون أخير مني. وأن يحيا فيك الخير.

وما كان لعبد الله الفتى الخلوق طيب النفس نقي الضمير، إلا أن ينصت لوالده. قرفص على أريكة مبطنة ودنا من والده.

إنك الآن ستدرس بأمريكا. والذين درسوا قبلك هناك أجناس وأصناف وأشكال. اختلفت منازعهم ومذاهبهم واتجاهاتهم، كما اختلفوا في مقدار النجاح والفشل. لذا اجعل النجاح نصب أعينك. واعتكف على دروسك بكل جدٍ. واعمل وكد ونمِّ عقلك. واجعل علمك غزيرا. تكن خير ذخيرة للأمة. واعشق الجمال في عزة وكرامة. ولتكوِّن لنفسك ذوقا سليما. فكل ما حولك هناك متلف للمشاعر السامية. فأنت ستعيش وسط

تيارات تتنازعك، وأمواج تتقاذفك، وأخشى غرقك. أخشى أن تتغلب عليك فتغرق. فحاول الاحتفاظ بالخلق الطيب، وقاوم بواعث الشر. فأسباب اللهو ميسورة، ولا تغتر بمن علا صيتهم في التهريج.

واجعل السلوة الكبرى دينك. واعرف الله حق قدره، وافزع اليه إذا نزل بك الكرب. والجأ له إذا اشتد بك الخطب، واركن اليه في الضراء والسراء تجده يعينك على الخير ويصونك من الشر، ويعزيك عند القرح. فيقدف الطمأنينة في قلبك.

لذا بني لا تجعل شأن دينك يضعف. ولتسْعَ وراء النبل والمروءة. وإني سأدعو الله أن يجنبك الزلل ويثبتك على دينك. آمين.

واحذر ألا تطأ قدماك ثلاث مواضع "الخمر، والنساء، والقمار". فهؤلاء الثلاثة ينكدون الحياة ويضعفون الروح ويسجنون الحرية ويسوقون الى أسوء حال. فالتزم بمبادئك، واجعل محور اجتهادك في الاعتياد على ما هو خير، فالإنسان هو العادة. فوسع عينيك ودقق النظر في عادات القوم هناك. وخذ ما يستحسنه ضميرك، وتجنب ما يبعده. وعش حياتك حياة اقتصادية لا إسراف فيها ولا تقتير. حياة زاهدة زهيدة لا حرمان ولا بهرجة.

ثم سكت الأب بعد ذاك سكوت المجهد المتعب. وأردف بلهجة توحي بالخلاص:

احرص على أن تعود لوطنك خيراً مما كنت عليه.

ولا يزال الأب يوصي بالدين خيرا، وبالفضيلة حرصا. وفي نفسه من التردد والقلق ما يكون في نفس الذاهب الى الهيجاء. أو الذاهب الى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك. وأخذ عبد الله يستسيغ ما يمليه والده وكله آذان صاغية.

وسافر صاحبنا إلى أمريكا وبدل أن يحول التيار جرفه التيار، وشعر إذ ذاك أن حريته في بلاده كانت مفقودة، وفي أمريكا موفرة. ومجال اللهو فسيح واسع. فانغمس في وسائل اللهو. ووهبها كل ماله وتفكيره، نهاره نوم وليله عبث. وهو يلهو يوهم نفسه ووالده أنه يُجِد ويثابر. فحرص على استجلاب المال من أبيه ومنحة الحكومة. وكل ما في جيبه مصروف في الشهوات. فتجرع ملذات أمريكا حتى الثمالة وأصبح مغلوبا على أمره، ناقما على الدنيا متبرما منها. فخاب فيه الأمل وفقد ذكاءه اللامع، ونشاطه السابق، وجِده الباهر.

وأقام صداقات مع أصحاب الأقوال المعسولة، والحماس المفتعل والملمس الناعم. باطنهم خراب وقلوبهم هواء. هَوَوا به في بحر لجّي من الظلمات. فتحلب فاه للولائم الحمراء وليالي البذخ. وانغمس في المواضيع التي حذر منها والده. وتمرغ فيها بالقدر

الذي أهلك ضميره. ولم يعمل بأي شيء مما استساغ من نُصح والده. واستبدلت سمات السمو بطويته الى لهو وذل ونشاز. يرى الحياة لذة منتهزة ومرتقبة، ومأسوف على ضياعها، ولا شيء غير ذلك.

وليت المصيبة تقف عند هذا الحد لهانت. بل عظم إثمه حين ألحد عن الدين، وشك في وحدانية الله وأوكَح عبادته. بعد أن ضعف دينه أمام الاستعراض الباهر للتقدم العلمي. فنظر باحتقار الى دينه وعاداته. فلمس فيها النقص، وما بها نقصٌ. وبدا له التخلف، وأن ديننا ضرب من الخرافة. والعياذ بالله.

وأقام مكان عبادة الله تعبُّد القوة المادية، وجعلها مصدر الإلهام والسعادة. فأمست القوة المادية غاية سامية وهدف حياة. وكان ما يراه في المجتمعات العربية من التفرقة والانحلال- الذي يسعى من يمارسه الى تصويغه بإسم الدين- كفيلا بأن يطبع في ذهنه أن كل ما يأتي من أمريكا هو الحق والنور، هو السبيل الى القوة والخلاص. فغابت عنه أصول المنطق، وفرت منه الفضيلة فرار السجين من سجنه. والطائر من قفصه. وظل على زهوه وتفريطه في جهله، حتى توالت عليه النتائج الخائبة. وطرد من جامعته بعد انقطاع طويل عن الدراسة فعاد صاحبنا منكوبا قد لبس من الشقاء ما أضناه، وتراءى في عينه مالم يكن يرى سالفا. فاسترخى حاجبه وثقل. عاد لوطنه وقد ترك قلبه

المطمئن السامي في أول طائرة استقلها لأمريكا. عاد لوطنه وهو ظالم لنفسه قد خسر الدنيا والدين.

وأول ما أخبر به من استقبله في المطار، ألا يحدثه أحد عن الدين وعن الله، فهذا الحديث لم يعد يأخذ من قلبه ما أخذ من قبل. وغاص معهم في جدالات لا تنتهي إلا لتبدأ، ولا تبدأ إلا ليسترسل فيها.

وقد علم الأب بما حل بابنه من فشل وارتداد. فوقف مصدوما واجماً وبين جبينه من الهم والكمد ما الله به عليم.

ولكم أن تعلموا أن الزمن حجاب المستقبل، فنحن لا دراية لنا بما سيحدث غدا أو بعد غد. وكل ما ندريه هو حاضر نعيشه وماض عشناه. وأما المستقبل فلا ندري ما هو قضاء الله فيه. فلم يكن أمرا محسوبا ولا في الحسبان أن يدور الزمان ويكشف عن وضيع كان من قبل شريفا. وعن فاشل كان من قبل ذكيا، فتحولت النسمة العليلة الى لفحة حارة.

تخبط عبد الله في السفسطة والسؤال الجوهري لدى أمثاله "من خلف الخالق؟" فيكمن التناقض في سؤالهم إذ يعترفون بالخالق! ويسترسلون في خَلقِ الخالق وما يثير الغرابة والعجب والشده أنهم يشكون في الحق ويطلبون دليلا من الباطل. فتراه يطعن في عدالة الله. ولو أنه هو وأمثاله أنصتوا الى الفطرة

وصوتها وانحازوا عن الجدل لأوصلتهم الفطرة الى الله عاجلا غير آجل.

وقد ألم والده الى نصحه وقد تكسرت منه النصال على النصال، لكن شمعة أمله في الله منيرة لا انطفاء لها. وعبد الله أعرض عن ذاك إعراضاً وأنكر إنكارا.

فلتعفني يا أبي من أغلال إسلامكم، فلا أرضى أن أكون عبدا. أريد أن أعيش حراً طليقا أجول وأجادل، أناضل وأنتقد. فلأعش ممقوتا مرذولا، لا مستعبدا للعادات والدين. يا أبي لقد طعنت في السن فأطفئ صوت الفطرة فإن العالم في غنى عنها. العالم يتساير بالعلم.

وترافقت كلماته مع حركات يده، ثم بعد فترة صمت مشحونة بالذهول يقول الأب:

بُني إن من حكم الله وكنهه، أنه أودع في القلوب حقا لا يخطئ ولا ينطق عن هوى. وهو قول الفطرة، فهي لا تقبل لمنطق التشويه ولا الإغراء ولا التبديل، فجعلها نازعة إليه تأوي له بطبيعتها.

واعلم بني أنك أخذت العلم من مؤخره. فلو غصت في الدين لظهرت ملامح توحي بأن الدين دليل العلوم، وأن المواد وقوتها مخلُوقة غير خَالقةٍ. إذ ذاك نرى أن الإسلام عقل يخاطب أتباعه بالمنهج العقلي العلمي لا الاعتباطي.

وأدرك الأب حينها أن ابنه أصابه خلل عجز فيه عن الملاءمة بين ممارسة التدين في مراتبه العليا. والتعامل مع مُخرجات الحضارة المادية الشهوانية الحديثة. فضحى بالتدين، ورفض المنظومة الدينية كاملة.

اعلم بني أن الأفكار المحمومة التي تبنيتها في أمريكا شر مهلك، يقيم بينك وبين تراث دينك قطيعة عرفية معرفية. ويرسخ في ذهنك كرها وأنت تتوهم الصلاح. فانفض يا بني رعاك الله ذاك الغبار الهلامي الذي يقيدك من كل جنب. واختل بنفسك، واعتزل الآنام، وفارق عشيرة السوء وتأمل العظمة، علّك تجد في التأمل منارات الهداية. وليت الإلاه يحدث بعد ما جرى أمرا، فيقدف الثبات في نفسك، ويمطر في قلبك قطرة هداية. قطرة واحدة من غيوث رحمته. تبلل بها إلحادك وتطفئ بها شكك...

ولا زال الأب يملي النصائح والوعظ على غرار ما يفعله وفعلهُ آخر مرة. لكن بصيرة المخاطب طمست. وكل ما يتلفظ به الأب يخلق في أعماق عبد الله نرفزة أقرب إلى العناد.

وكان عبد الله يشيد بمجال اللهو في أمريكا، ويفيض في وصف مغامراته. أما الآن وقد حالت الحوائل بينه وبين عودته لأمريكا فعرج يسوخ في اللذائذ من خرجات وسهرات. ولم يسلم

من أتراب السوء الذين اجتصوا عليه كما يكتنع الذباب على جثة جيفة أجفلها ذئب شكس.

لكن البعد عن الله يغشي الوجوه بغشاء طفيف من الكآبة والغباء والحزن والذلة تارة. وليوهم نفسه بالراحة عمد إلى السفر والتنقل عبر أقطار الوطن.

وفي إحدى سفرياته قضى الله فيها إحداث أمر. فخرج عبد الله راكبا سيارته، سالكا طريقا مهيعا بين الروابي والجبال. وكان الطريق يغرق في السراب وصليل الشمس لحظة انطلاقه. فطال به السير حتى كادت الطريق تسبح في غلسة الليل، فانسحبت الشمس أمام جحافل الظلمة. إذ ذاك هبت الريح صرصرا عاتية تسف الغبار بخشونة تولد رعشة بين البرودة والخوف. وزفت الرياح السحاب والغبار فضعُفت الرؤية، وارتخت أواصر عبد الله، وهدّه العياء وهو يقود بتهور وسرعة مفرطة. فغفل عن المسير وهوى من على أكمة عالية. فتدحرجت به السيارة بن صخور صلداء وهضاب رهيبة. وصرح حينها مناجيا الله:

"ربي أنقدني"

ومع كل دحرجة يجلجل:

"إلهي أنقدني "يا رب يا رب!!"

هنا بدأت فطرة الله تتغرغر في حلقه وتنسحل في جوفه وتنحشر بفؤاده. وهَمَّ بالصراخ والسيارة تهوي متدحرجة تنتزع

منها الأطراف وتقتلع. سقطت الأبواب، وكسر الزجاج، وانتزعت المرايا. وبقيت على حالها متدحرجة تنحدرُ. حتى صدمت بشجرة كانت المتصدى. إذ ذاك نزل عبد الله من السيارة وفاه لا يكف عن المناجاة، واختلطت دموعه بزفيان الليل الحزين. وبدأ الحق يقترب ويتباعد مثل ألسنة اللهب.

أحس بومضة بارقة تنفد الى لب جمجمته وخطا خطوات سريعة متعثرة والعروق نافرة من يديه العارقتين. وجلس وحيدا والخوف يأكله، وامتد له الصمت مثل غيمة ثقيلة. وظل صامتا وقد أرخى عينيه وأواصره ترتعد.

وبعد هنيهة لحظية عابرة بلع ريقه وانبسطت شرايين قلبه فتفقد نفسه. فكان من عجائب الله ألم يصبه ضرر ولا أدية. جرح واحد لا تكاد تجده فيه. ووسط هذه الصدمة السحيقة لمح سيارته وهي مهيضة محطمة. غريب!! إن ما حدث معه ليس عَرَضاً ولا صدفة. وأن الصدفة أمام ما حدث شيء حقير دنيء. وأن هناك قدرة غريبة قد أنقذته من هذا السقوط المفجع. وقد نجاه الله بجسده ليكون عبرة لنفسه.

وإزاء هذا الشعور قام كمولود جديد ينفض عن نفسه الأفكار التي إعتنقها. وحضر في ذهنه حديث والده عن الفطرة... وعلم حينها أن الأشياء تأخذ معاني لا تعنيها إن فُقدت الفطرة. كما أن الإنسان يفقد نفاذ عقله إن هو ألحد أو أعرض عن الله.

فحركت الفطرة أشواق الروح، وعاينت أسرار القدرة الإلهية، فحيي وجدانه وفاض حسه.

وخطأ عمره حين أضاع سنوات عجاف من رحمة الله. فبعُد عنه وعمد الى التفرقة.

فتاب الى الله توبة نصوحا، واستغفر الله صادقا. عازما على ألا يعود لمعصيته، فتوجه الى مولاه توجها سليما لا غرض فيه سوى بلوغ الحق لوجه الحق. فعُولج قلبه الشموس وأصبح مخموما. ومضى في طريق الله وعاش فضيلا في ظلال الفضيلة وقلبه عامر ب لا إله إلا الله.

وهذه العبارة خير ما نختم به مجموعتنا القصصية هاته.

نسأل الله السداد والعون.

الفهرس

تقديم. ٣
إهداء.. ٤
قالو عنه ٥
قالو عنه ٦
الغـريب ٨
الخطأ....................................... ١٥
الـحب والسـر............................٢١
الابتلاء.................................... ٣٣
حكمة الحياة السياسية ٤٢
ولـى الزمن...............................٥٠
أمر مقضـي... .... ٥٨
ومضة فطـرة.............................. ٦٧

وكان أمرا مقضيا

محمـــــد الملـــوكي

فعادت الفرحةُ ترقص في القلوب، والنشوة تَشعلُ في النفوس، وأحيل الضجرُ الى سعادة، والضّعفُ الى أنسٍ وَدعة.

وما غمر قلبه من سعادة وراحة، جعله يغفر للماضي إساءته وهو يعلم أن ما حدث كان أمرا مقضيا قضاه الله وحتّمه وقدره وقرره وكان محسوبا بدقة ليناسبه. ولله في قدره حكمة بالغة لايُعرف كُنهها ولا تدرك أسرارها.

وسبحان الله الذي لا يعلو على برهانه برهانٌ.